# حرف الكاف

## كعبُ بنُ زُهَيْر بن أبي سُلْمَى رضي الله عنه

صحابي، من زَيْنَةَ، شاعر مخضرمٌ مُجِيدٌ، والده الشاعر الحكيم «زهير بن أبي سُلْمى» وأمه «كبشة بنت عمار بن عدي».

قال أبو سعيد السكَّري في مقدمة شرحه لديوان «كعب بن زهير»: [والرواة متفقون على أن الشعر لم يتصل في ولد أحد من فحول الشعراء في الجاهلية اتصاله في ولد «زهير»، وفي الإسلام في ولد «جرير»، فكعبٌ وأبوه «زهير» وجده «أبو سُلْمى» وعمتاه «سُلْمى» و«الخنساء»، وخال أبيه «بشامة بن الغدير»، وابنا عمته «تماضر الخنساء»، وأخوها «صخر» وابنا بنته «سَلمى»، «العَوْثبان» و«قريض»، وأخوه «بجير» وولده «قصبة» المُضَرَّب، وحفيده «العوام بن عقبة» ـ هؤلاء كلهم شعراء، ولكعب ابن آخر من ولده «الحجاج بن ذي الرقيبة بن عبد الرحمٰن بن عقبة بن كعب»، وهو الذي روى عنه التبريزي قصيدته «بانت سعاد» من طريقه سنداً][1].

وأجمع الرواة على أن «كعباً» مقدم في طبقته، وشعره شاهداً على فصاحته، وآية بينة على جَوْدَته، فالسبك عنده رصين متماسك، واللفظ قوي جزل، والمعنى سام رفيع، وقد ذكر «ابن سلَّام الجمحي» في كتابه المنعوت بـ (طبقات فحول الشعراء): أن الحطيئة قال لكعب: (قد علمت روايتي شعر أهل هذا البيت وانقطاعي لكم، وقد ذهب

---

(١) شرح ديوان كعب (ص/م).

الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك، وتضعُني موضعاً! فإن الناس لأشعاركم أروى، وإليها أسرع، فقال كعب:

فمن للقوافي شانها من يحوكها ... إذا ما ثَوَى كعب وفَوَّز جَرْوَلُ
كفيتُك لا تلقى من الناس واحداً ... تنخَّلَ منها مثلَ ما يَتَنَخَّلُ
يُثَقِّفُها حتى تلين متونُها ... فَيُقْصُرُ منها كل ما يُتَمَثَّلُ

وكان «خلف الأحمر» يقول: (سبق كعب إلى مذاهب في الشعر أخذها عنه الشعراء) وكفى بها شهادة!

وقد لقي «كعب» من أبيه العَنَتَ بعد أن علم أنه يقول الشعر، وضربه على ذلك مراراً عدة ونَهَاه، لأنه كان يخاف أن يكون لم يستحكم شعرُه، فَيُرْوى له ما لا خير فيه، ثم تجاوز الضربَ فحبسه، وقسا عليه، ثم أطلقه من مَحْبسِهِ، وأرسله في بَهْم يرعاها، ثم أمر بناقته فامتطاها، وخرج في إثر «كعب» ولده، فلما انتهى إليه، أردفه خلفه، وألقى على مسامعه بيتاً، وأمره أن يجيزه، ففعل، ثم راح «زهير» يقول، ويرد «كعب» حتى إذا كفاه منه ما سمع، أخذ بيده، ثم قال له: قد أذنت لك يا بني في الشعر.

وذكر السيد المرتضى[1] في أماليه: [وروى أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال: قال «زهير بن أبي سُلْمى المزني» بيتاً، ثم أكدى[2]، ومر به «النابغة» فقال له: يا أبا أمامة، أجِزْ، قال: ماذا؟ قال:

تراك الأرض إمَّا مِتَّ خِفَّاً ... وتحيا ما حييت بها ثقيلا
نزلت بمستقرِّ العز منها ... .....

(١) أمالي المرتضى (١/٦٦).
(٢) أكدى: لم يستطع المتابعة.

فماذا؟ قال: فأكدى، والله! النابغة أيضاً، وأقبل «كعب بن زهير»، وهو غلام، فقال له أبوه: أجز يا بني، فقال: ماذا؟ فأنشده البيت الأول ومن البيت الثاني: نزلت بمستقرِّ العزِّ منها.

فقال كعب: فنمنع جانبيها أن يزولا.

فقال زهير: أنت والله! ابني. وعدَّه ابن سَلَّام في الطبقة الثانية. ولكن كيف دخل «كعب بن زهير» في الدين الحنيف؟

روى أبو سعيد السكري شارح ديوان «كعب بن زهير» عن محمد بن إسحاق، قال: [أسلم «بُجَيْرُ بن زهير بن أبي سُلْمى المُزَنِيُّ» فاشتد عليه أهله، وكان «كعب بن زهير» - وهو أخوه لأبيه وأمه - شديداً عليه، فلقي «بُجَيْرٌ» النبي ﷺ مهاجراً، فأرسل إليه «كعب بن زهير»:

ألا أبلغا عني بُجَيْراً رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ بالخيف هل لَكَا

شربتَ مع المأمون كأساً رَوِيَّةً ... فأنهلك المأمون منها وعَلَّكا

قال: كانت قريش تسمي النبي ﷺ: المأمون والأمين.

وخالفتَ أسباب الهدى وتبعتَه ... على أيِّ شيءٍ وَيْبَ[1] غيرِك دَلَّكا

قال: كان الأصمعي يكسر وَيْب، ويُرْوَى: على غير شيءٍ.

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أماً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لَكَا

فلما بلغت هذه الأبيات «بُجَيْراً» أنشدها النبي ﷺ، فقال: **(صدق! أنا المأمون، وإنه لكاذب)**، قال: أجل، لم يُلْفِ عليه أباه ولا أمه على الإسلام، فأجابه بُجَيْرٌ:

---

(١) وَيْبَ: عجباً لك.

من مبلغٌ كعباً فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلاً وهي أحزمُ
إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحده ... فتنجو إذا كان النجاءُ وتَسْلمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بِمُفْلِتٍ ... من النار إلا طاهِرُ القلب مسلمُ
فدينُ زهيرٍ وهو لا شيء دينُه ... ودين أبي سُلْمى عليَّ محرَّمُ

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة مُنْصَرَفَهُ من الطائف، كتب «بُجَيْرٌ» إلى أخيه: إن النبي ﷺ يهمُّ بقتل كل من يؤذيه من شعراء المشركين، وإن «ابن الزبعري» و«هبيرة بن أبي وَهْبٍ» قد هربا، فإن كان لك في نفسك حاجة، فاقْدَم على رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، وإن أنت لم تفعل فانْجُ إلى نجائك من الأرض. فلما أتاه كتاب بُجَيْر ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره، وقالوا: هو مقتول، وأبت مزينة أن تؤويه، فقدم المدينة، فنزل على رجل بينه وبينه معرفةٌ، ثم أتى رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ لا يعرفه، فجلس بين يديه، ثم قال: يا رسول الله! إن «كعب بن زهير» أتاك تائباً مسلماً فهل أنت قابلٌ منه، إن أنا جئتك به؟ قال: (نعم) قال: فأنا كعب، فوثب رجل من الأنصار فقال: دعني أضربْ عُنُقَهُ، فكَفَّه النبي ﷺ عنه، فقال يمدح النبي ﷺ قال: فبلغنا أن «عاصم بن عمر بن قتادة قال: إنما قال كعب:

... إذا عَرَّد السود التنابيلُ[1]

يريد الأنصار؛ لأن رجلاً منهم وثب عليه فكَفَّه النبي ﷺ، وخص المهاجرين من قريش بالمدح مع مدح رسول الله ﷺ، فقال:

---

(١) تمام البيت:
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضربٌ إذا عرَّد السُود التنابيلُ

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... مقيم إثرها لم يُجْزِ[1] مكبولُ
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغنُّ غضيض الطرفِ مكحولُ
هيفاءُ مقبلةً عجزاء مدبرةً ... لا يشتكى قصر منها ولا طُولُ
فما تدوم على حال تكون بها ... كما تلوَّن في أثوابها الغُولُ
وما تمسَّكُ بالوصل الذي زعمت ... إلا كما تُمْسِكُ الماءَ الغرابيلُ
كانت مواعيد عرْقوب لها مثلاً ... وما مواعيده إلا الأباطيلُ
يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم ... لأنت يابن أبي سُلْمى لمقتولُ
وقال كل خليلٍ كنت آمُلُه ... لا أُلفينَّك إني عنك مشغولُ
فقلت خلُّوا طريقي لا أبا لكمُ ... فكل ما قدَّر الرحمٰن مفعولُ
كل ابن أُنثى وإن طالت سَلامَتُه ... يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ
أُنبئتُ أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
إن الرسول لسيفٌ يستضاء به ... مهنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ

فلما قال ذلك، أشار رسول الله ﷺ إلى أصحابه أن أسمعوا، حتى أتم القصيدة، فخلع عليه رسول الله ﷺ بردته، ثم أخذ الخلفاء يتداولونها، ومن أراد الشعر الجيد فليلتمسه عند «كعب» فقريحته ما تنفك تجود به، ومن جيِّده قوله:

لو كنت أعجب من شيءٍ لأعجبني ... سعي الفتى وهو في بوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهم مُنْتَشِرُ
والمرء ما عاش ممدودٌ له أملٌ ... لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثَرُ

(١) في بعض الروايات: لم يُقْدَ.

وقد أعرض «كعب» عن ذكر الأنصار في قصيدته «بانت سعاد» فشَقَّ ذلك عليهم، فقالوا له: ألا ذكرتنا مع إخواننا من قريش! فقال كعب:

مـن سَـرَّه كَـرَمُ الـحـيـاةِ فـلا يَـزَلْ ... في مِقْنَبٍ من صالحي الأنصار

قال أبو عمرو: المِقْنَبُ: ألفٌ وأقل، ولم نسمع ثلاثين وأربعين، وقال الأصمعي: هم الجماعة من الفوارس نحو الثلاثين أكثر وأقلَّ.

تَـزِنُ الـجـبـالَ رَزَانـةً أحـلامُـهُـمْ ... وأكـفُّـهـم خَـلَـفٌ مـن الأمـطـارِ
الـمـكـرهـيـن الـسَّـمْـهَـرِيَّ بـأذْرُعٍ ... كـصـواقـلِ الـهـنـديِّ غـيـر قِـصَـارِ
والـنـاظـريـن بـأعـيـن مـحـمـرَّة ... كـالـجـمـر غـيـر كـلـيـلـةِ الإبـصـارِ
والـذائـديـن الـنـاس عـن أديـانـهـم ... بـالـمَـشْـرِفـيِّ وبـالـعـنـا الـخَـطَّـارِ
والـبـاذلـيـن نـفـوسـهـم لـبـنـيِّـهـم ... يـوم الـهـيـاج وقُـبَّـة الـجـبـارِ[1]
وهُـمُ إذا خـوتِ الـنـجـوم فـإنـهـم ... لـلـصـائـفـيـن الـسـائـلـيـن مُـقَـارِي
وهُـمُ إذا انـقـلـبـوا كـأنَّ ثـيـابـهـم ... مـنـهـا تـضـرُّعُ فـأرةِ الـعـطـار

والأبيات أكثر، وهي في الديوان، ولا يتسع المقام لذكرها كلها.

ومما يستحسن لكعب ويستجاد من شعره:

إن كـنـتَ لا تـرهـبُ ذمِّـي لـمـا ... تـعـرف من صفحي عن الجاهلِ
فـاحـسَـن سكـوتـي إذ أنـا مُـنْـصِـتٌ ... فـيـك لـمـسـمـوعِ خـنـا الـقـائـلِ
فـالـسـامـع الـذَّامَ شـريـكٌ لـه ... ومـطـعـم الـمـأكـول كـالآكـلِ
مـقـالـةُ الـسـوء إلـى أهـلـهـا ... أسـرعُ مـن مُـنْـحَـدر سـائـلِ
ومـن دعـا الـنـاس إلـى ذمِّـه ... ذَمُّـوه بـالـحـق وبـالـبـاطـلِ[2]

---

(١) أراد بيت الله الحرام، وكأنه يقسم به.

(٢) ذكر الأبيات أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٣١٥).

وقال أيضاً في يوم فتح مكة، وفي غزوة حنين والطائف:

فـفـي أهـلَ الـحَـبَـلَّـقِ يـومَ وجٍّ مـزيـنـةُ جـهـرة وبـنـو خُـفَـافِ
صَـبَـحْـنـاهـم بـألـفٍ مـن سـلـيـم وألـفٍ مـن بـنـي عـثـمـان وافِ
حـدوا أكـتـافـهـم ضـربـاً وطـعـنـاً ورمـيـاً بـالـمُـرَيَّـشَـةِ الـلِّـطـافِ
رمـيـنـاهـم بـشُـبَّـانٍ وشـيـب تـكـفـكـف كـل مـمـتـنـع الـعـطـافِ
تـرى بـيـن الـصـفـوف لـهـن وشـقـاً كـمـا انـصـاع الـفُـواقُ عـن الـرِّصـافِ
تـرى الـجُـرْد الـجـيـادَ تـلـوح فـيـهـم بـأرمـاحٍ مُـقَـوَّمـة الـثِّـقـافِ
ورُحْـنـا غـانـمـيـن بـمـا أردنـا وراحـوا نـادمـيـن عـلـى الـخِـلافِ
وأعـطـيـنـا رسـول الله مِـنَّـا مـواثـيـقـاً عـلـى حـسـن الـتـصـافـي
فـجُـزنـا بـطـن مـكـة وامـتـنـعـنـا بـتـقـوى الله والـبـيـض الـخِـفـافِ
وحَـلَّ عـمـودُنـا حَـجَـراتِ نـجـدٍ فـأَلْـيَـةَ فـالـقُـدوسَ إلـى شَـرَافِ
أرادوا الـلاتَ والـعـزَّى إلٰـهـاً كـفـى بـالله دون الـلاتِ كـافِ[1]

نعم، كفى بالله كافياً، وهادياً، ونصيراً، وكفى بالله وكيلاً!

وامتد العمر بكعب بن زهير حتى زمن «معاوية»، رحمه الله تعالى.

(١) الأبيات من شرح الديوان للسكري (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧).

# كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه

## شاعر الإسلام

صحابي، أنصاري، خزرجي، سلمي، شاعر.

قال رسول الله ﷺ: **(المجاهد يجاهد بلسانه وسيفه)**، وهكذا كان «كعب بن مالك» الأنصاري، أحد شعراء الإسلام الثلاثة المقربين إلى رسول الله ﷺ، وأما الآخران فهما: «حسان بن ثابت» و«عبد الله بن رواحة» وهما من الأنصار أيضاً، وقد تصدى الثلاثة لشعراء قريش وفرسان بيانها، وذَبُّوا بشعرهم عن رسول الله ﷺ والمسلمين، فأنزلوا الخزي والعار بأعداء الله والدين، وتركوهم أذلة صاغرين، وكان لهم من الله تأييد عظيم، وتشجيع من رسوله الكريم، عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم.

فمن هو «كعب بن مالك» هذا؟ وكيف تحوَّل من عبادة الأصنام إلى دين الإسلام؟ وما المحنة التي اعترضت مسيرة حياته؟.

كان رسول الله ﷺ قد لقي في مكة المكرمة اثني عشر رجلاً من أهل «يثرب»، ولما دعاهم إلى الإسلام لبوا دعوته، وبايعوه بيعة النساء قبل أن تفرض الحرب، فقال لهم رسول الله ﷺ: **(تبايعوني على ألَّا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه)**، وسميت تلك البيعة: «بيعة العقبة الأولى» وحين أرادوا العودة إلى أهلهم، سألوا رسول الله ﷺ أن يختار رجلاً

من أصحابه ليصحبهم إلى بلدهم، ويقرأ فيهم القرآن، ويعلمهم أحكام دينهم، وكان «مصعب بن عمير» هو السفير المرشح للقيام بهذه المهمة الجليلة.

ونزل (مصعب) ضيفاً على أبي أمامة «أسعد بن زرارة» واتخذ بيته مجلساً لاستقبال الراغبين من أهل «يثرب» بلقاء السفير المكي، وسماع حديثه عن تعاليم الدين الذي اعتنقوه يوم العقبة الأولى.

وواعد «مصعبٌ» رسول الله ﷺ أن يلقاه في العقبة في أوسط أيام التشريق من موسم الحج التالي مع من أسلموا من أهل «يثرب». وفي الموعد المضروب، توجه «مصعب» إلى مكة لموعده مع رسول الله ﷺ وحضر اجتماع العقبة نيف وسبعون رجلاً وامرأتان، وكان «كعب بن مالك» أحد الحاضرين، وخلال الاجتماع اختار الأنصار منهم اثني عشر نقيباً، وبايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية.

وقد أخرج ابن هشام في سيرته[1] عن ابن إسحاق حديث «كعب بن مالك» عن ليلة العقبة الثانية التي حضرها، قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه «العباس بن عبد المطلب» وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم «العباس بن عبد المطلب» فقال: يا معشر الخزرج ـ قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار (الخزرج، خزرجها وأوسها): إن «محمداً» منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٤).

ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله! فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: **(أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم)**.

قال: فأخذ «البراء بن معرور» بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا[1]، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحَلْقة[2]، ورثناها كابراً عن كابر.

قال: فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التَّيِّهان ـ فقال: يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجل حبالاً، وإنا قاطعوها يعني: اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: **(بل الدمُ الدمُ، والهدمُ الهدمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم)**.

قال كعب بن مالك: وقد كان قال رسول الله ﷺ: **(أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم)** فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه[3]: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: قال محمد بن إسحاق، فحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال للنقباء:

---

(١) أُزُرَنا: نساءنا.
(٢) الحَلْقة: السلاح.
(٣) تاريخ الطبري (ص: ٣٦٣/ ٢).

**(أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي)** قالوا: نعم.

وتابع أبو جعفر حديثه عن محمد بن إسحاق، عن معبد بن كعب، قال: عن أخيه عبد الله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك، قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ «البراء بن معرور»، ثم تتابع القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب[1]! هل لكم في مُذَمَّم والصُّباة معه، قد اجتمعوا على حربكم! فقال رسول الله ﷺ: **(ما يقول عدو الله؟ هذا أَزَبُّ العقبة، هذا ابن أَزْيب، اسمع عدو الله! أما والله لأُفْرُغَنَّ لك)**، ثم قال رسول الله ﷺ: **(ارفَضُّوا إلى رحالكم)**، فقال له العباس بن عُبَادة بن نفلة: والذي بعثك بالحق! لئن شئت لنميلَنَّ غداً على أهل مِنًى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: **(لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)**. قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا حلَّة من قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، أنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث مَنْ هناك مِنْ مشركي قومنا يحلفون لهم بالله، ما كان من هذا شيء، وما علمناه، قال: وصدقوا ولم يعلموا.

وبعد انتهاء البيعة، عاد الأنصار ـ وفيهم كعب بن مالك ـ بنقبائهم إلى ديارهم وقد حملوا أمانة نشر الدين الحنيف بين أهاليهم وذوي القرابة منهم، حتى يصل إلى بلدتهم أعز الرجال، بإذن الله الكبير المتعال!.

---

(١) الجباجب: المنازل.

وخرجت «يثرب» بشيبها وشبابها، ورجالها ونساءها وأطفالها لتستقبل ضيفها الكبير أروع استقبال، ثم حط الرحال في المنزل الذي توقفت أمامه ناقته القصواء.

إن أبا أيوب الأنصاري، وامرأته أم أيوب لَيُحسَّان بفيض كبير من السعادة والسرور، لأن أكرم الضيوف سينزل عليهم، ويأكل من طعامهم، وهناك ما هو أجل وأعظم، ذلك أن جبريل عليه السلام سيدخل دارهما لأول مرة ليلتقي برسول الله ﷺ، وستتكرر زيارته ما دام رسول الله ﷺ مقيماً عندهم، وبعد أن استراح قليلاً، غيَّر اسم: «يثرب» وسماها: «المدينة»، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، فكان «طلحة بن عبيد الله»[1] من المهاجرين أخاً لكعب بن مالك الأنصاري، واتَّخذ «كعب بن مالك» مقعداً له في مجالس رسول الله ﷺ، وراح ينشده من شعره، وكان ﷺ يشجع «كعباً» ويستزيده إذا أنشده، فإذا فرغ قال له النبي ﷺ: **(لهذا أشد عليهم من مواقع النبل)** وهو يعني: المشركين. وكان شعراء قريش يهجون رسول الله ﷺ والمسلمين والإسلام، فأذن ﷺ لشعرائه الثلاثة بالرد عليهم، فأخذوا يصكون أسماع قريش بما أوجعها وثقل عليها، ولما سمع رسول الله ﷺ قول كعب:

زعمت سخينة أن ستغلب ربَّها ... وليُغلبَنَّ مغالب الغَلَّاب

وسخينة: اسم كانت تعيَّر به قريش في الجاهلية، لأنها كانت تكثر من أكل السخينة وهو طعام حار يصنع من التمر والسمن والدقيق، فعُيِّرَتْ به، فقال رسول الله ﷺ لكعب: **(أنت الذي تقول: زعمت سخينة... البيت؟)** فقال كعب: نعم، يا رسول الله! فقال: **(أما إن الله لم ينس لك ذلك، لقد شكر الله قولك...)**، وكان ﷺ كما قيل يستزيد كعباً ثلاثاً إذا أنشد الشعر أمامه.

---

(١) أسد الغابة (٣/ ٥٣٧)، الاستيعاب (٣/ ١٣٢٣).

ولم يكن «كعب بن مالك» ليدع المشاهد والغزوات التي خاضها المسلمون ضد المشركين تفوته مع رسول الله ﷺ ما عدا «بدراً» و«تبوك». أما (بدر) فقد تخلَّف عنها: لأن المسلمين لم يكونوا يظنون أن سيكون هناك قتال، لأن سبب المعركة يومئذٍ خروج المسلمين لاعتراض عيرٍ لقريش فيها تجارتها وأموالها، وإصرار المشركين على القتال بتحريض أشقاهم «أبي جهل» كما أن رسول الله ﷺ لم يعاتب أحداً من الذين لم يخرجوا إلى (بدر).

وأما (تبوك) فقد اختلف فيها حال «كعب بن مالك» عن حاله يوم (بدر) اختلافاً كبيراً أسخط عليه أهل الأرض والسماء، ثم تيب عليه، فكان الرضا والسرور، وخير من يحدِّثنا عن محنة «كعب» يوم تبوك، هو «كعب» نفسه، وقد أخرج الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في صحيحه حديث «كعب» فقال[1]: [حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا الليثُ، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعبٍ من بنيه حين عميَ، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن غزوة تَبُوكَ، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلَّا في غزوة تَبُوكَ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلَّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهدَ بَدْرٍ، وإن كانت بدرٌ أذكَرَ في الناس منها. كان من خبري: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغَزَاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قَطُّ، حتى جمعتُهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها،

(١) صحيح البخاري رقم (٤١٥٦) باب المغازي.

حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فَجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أُهْبَةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتابٌ حافظٌ، يريد الديوان.

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلَّا ظَنَّ أن سيَخْفى له، ما لم ينزل فيه وحيُ الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوةَ حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجعُ ولم أَقْضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يَتَمادى بي حتى اشتدَّ بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أَقْضِ من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوتُ، ثم رجعتُ ولم أقْضِ شيئاً، فلم يَزَلْ بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممتُ أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلتُ، فلم يقدَّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطُفْتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلَّا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً مِمَّنْ عَذَرَ الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تَبُوكَ، فقال وهو جالس في القوم بتَبُوكَ: (**ما فعل كعبٌ؟**) فقال رجل من بني سَلِمَةَ: يا رسول الله! حبسه بُرْداه، ونظره في عِطْفَيْه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ، والله! يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّه قافلاً حضرني همي، وطفقتُ أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أَظَلَّ قادماً زاح عني الباطلُ، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك

جاءه المحلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سَلَّمتُ عليه تبسَّمَ تبسُّم المُغْضَب، ثم قال: **(تعال)**، فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: **(ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك)**[1] فقلتُ: بلى، إني والله ـ يا رسول الله ـ لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيتُ أني سأخرج من سَخَطِه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله! لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني، ليوشكَنَّ الله أن يُسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديثَ صدقٍ تجِدُ عليَّ فيه، إني لأرجو عفوَ الله! لا والله! ما كان لي من عُذر، والله! ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: **(أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضيَ الله فيك)**، فقمتُ، وثار رجال من بني سَلِمَة فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله! إما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عَجَزْتَ ألَّا تكون اعتذرْتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذَنْبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك، فوالله! ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذِّبَ نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك، فقلتُ: من هما؟ قالوا: مُرارةُ بن الربيع العَمْرِيُّ، وهلال بن أمية الواقفيُّ، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدراً، فيهما أسوةٌ، فمضيتُ حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة من بين من تَخلَّف عنه، فاجْتَنَبَنَا الناسُ وتغيروا لنا، حتى تنكرتْ في نفسي الأرض فما هي التي أعرفُ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأَجْلَدَهم، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع

(١) الظَّهْرُ: الراحلة.

المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل عليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيتُ حتى تَسَوَّرْتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إليَّ، فسلمتُ عليه، فوالله! ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أَنْشُدُك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكَتَ، فعدتُ له فناشدته فسكت، فعدت له فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشَّام، مِمَّنْ قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غَسَّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مَضْيَعَةٍ، فالحق بنا نُواسِكَ، فقلت لما قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التَّنُّورَ فَسَجَرْتُه بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، وإذ رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربْها، وأرسل إلى صاحبيَّ مثلَ ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: (**لا، ولكن لا يقربْك**) قالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتك، كما أَذِنَ

لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟ فلبثتُ بعد ذلك عشر ليالٍ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صلّيتُ صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلةً، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكَر الله، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبتْ، سمعت صوت صارخٍ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعبُ بنَ مالكٍ، أَبْشِرْ، قالَ: فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فَرجٌ، وآذَنَ رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض إليَّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَهُ يبشرني نزعتُ له ثوبيَّ، فكسوتُه إياهما ببشراه، والله! ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقَّاني الناس فوجاً فوجاً، يهنُّونني بالتوبة، يقولون: لتُهْنِك توبة الله عليك، قال، «كعب»: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنَّأني، والله! ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيرُهُ، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، وهو يبرُقُ وجهه من السرور: **(أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك)**.

قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: **(لا، بل من عند الله)**، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: **(أمسك عليك بعض مالك فهو خير**

لك)، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألَّا أُحَدِّثَ إلَّا صدقاً ما لقيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مِمَّا أبلاني، ما تعمَّدت منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيتُ، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧]، فوالله! ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، ألَّا أكونَ كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا - حين أنزل الوحيَ - شرَّ ما قال لأحدٍ، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة، الآيتان ٩٥، ٩٦].

قال كعب: وكنا تُخِلِّفْنَا أيُّها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨] وليس الذي ذكر الله مِمَّا خُلِّفْنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه، فَقَبِلَ منه]. وأقول: ليس بعد الإيمان أجدى من الصدق، ولئن نجَّى الكذب حيناً، فالصدق ينجِّي في كل الأحايين، بل هو تاج على رؤوس المؤمنين.

وكان «كعب بن مالك» محباً للجهاد والمجاهدين، فحفل شعره بالحديث عنهم، وتخليد بطولاتهم، وقد اتسم شعره بالرصانة والقوة وجَوْدة الصياغة، ولم يفته ذكر الكثير من المشاهد والغزوات في شعره،

ومن العجب تصويره لما حدث يوم «بدر»، كأنه شهد المعركة، رغم ثبوت عدم حضوره لها؛ لأن أكثر الصحابة ـ وهو منهم ـ لم يكونوا يظنون أن سيكون قتال كما أسلفنا، وقد أورد ابن هشام في السيرة النبوية نماذج كثيرة من شعره أعرضنا عن إيرادها خشية الإطالة.

وانضم «كعب» إلى ركب رواة الحديث مع بنيه الأربعة: عبد الرحمٰن، وعبد الله، وعبيد الله، ومحمد، وحفظت له الكتب ثمانين حديثاً رواها عن رسول الله ﷺ، ومن أشهر ما رواه كعب عن فخر الكائنات، وأطهر النسمات، سيدنا «محمد» ﷺ، حديث: (**إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق**[1] **من ثمار الجنة**). وهذا يدل على أن الشعر لم يكن ليحول بين «كعب» وبين تفقهه في الدين، والنهل من خير معين، معين سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً، وقد أجرى الله تعالى الحكمة على لسان «كعب» فصدرت عنه بعض الأقوال الحكيمة، منها: أنه قال يوماً لعمر بن الخطَّاب:

[أنبئني ما المُثَلِّث؟ فقال عمر: وما المثلِّث؟ قال كعب: شر الناس المثلِّث، الساعي بأخيه إلى السلطان، لأنه يُهْلِكُ ثلاثة: يُهْلِكُ نفسه وأخاه بالسعي فيه إليه][2].

لقد روَّى بكثير من دمه ثَرَى أُحُدٍ، إلَّا أن حياته امتدت إلى سنة خمسين للهجرة، كما ذكر ابن كثير[3]، هكذا كان «كعب بن مالك» شاعر رسول الله ﷺ وصاحبه، فأيَّ رجلٍ كان؟ رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان!.

---

(١) تعلق: تَطْعَمَ.

(٢) انظر موسوعة الفداء للشرباصي (١/ ٣٢٤).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٤٨).